AL YAMAMAH مجلة أسبوعية شاملة تصدر عن مؤسسة اليمامة الصحفية

اليمامة

NO:2736
01 ديسمبر
2022 م
07جمادى الأولى
1444 هـ

مونديال قطر .. الفوز السعودي
الذي وحد الشعوب العربية.

ماركيز ..
وراء كل رواية حكاية.

9771319029600

د. محمد الهدلق..
الباحث
الموسوعي وأمين
اللغة العربية.

د. بياتريس غروندلر:
الاستشراق
مصطلح عفى
عليه الزمن.

بين جحود الأبناء واحتفاء الآخر..

غربة اللغة العربية.

المجلس

عالمة اللغات الألمانية د. بياتريس غروندلر لليمامة:

اللغة العربيّة مفتاحٌ لأبواب الأدب والمعرفة.

إعداد: منى حسن

عن سر انجذابها للعربية وآدابها، صرحت الدكتورة بياتريس غروندلر، الألمانية التي شغفت باللغة العربية منذ طفولة لغتها، فتخصصت فيها، وكرّست لها حياتها وبحوثها وقدمت إسهامات كبيرة في التعريف بها، و بالتراث الشعري والأدبي العربي القديم عموما، لمجلة اليمامة قائلة: « العربيّة مفتاحٌ للأبواب؛ فهي لغةُ الأدب والمعرفة التي لا تكف عن مفاجأتنا على الدوام».

وتُعد غروندلر من أهم المستعربين الباحثين في مجال اللغة العربية وآدابها، وترأس حاليا قسم الدراسات العربية في جامعة برلين الحرة، وهي متخصصة في تاريخ اللغة والكتابة العربية، الشعر والأدب العربي القديم تحديدا، وسياقاته وتحولاته، ثقافة الكتاب في الحضارة العربية، والإنسانيات الرقمية.

وللدكتورة بياتريس نشاط ملحوظ في المشاركة في الندوات عن مشروعها البحثي عربيا وعالميا، و شاركت مؤخرا خلال زيارتها للمملكة العربية السعودية ضيفة على معرض الرياض الدولي للكتاب، في ندوة بعنوان: «هل الأدب العربي أدب عالمي»، كما استضافها خلال زيارتها للرياض قسم اللغة العربية بجامعة الملك سعود في لقاء مفتوح حول نشأة الكتابة العربية وتطورها، وقدمه الدكتور إبراهيم الفريح الذي أشاد بإسهامات غروندلر فيما يتعلق بالمخطوطات وتقنيات الكتابة العربية القديمة. جدير بالذكر أن الدكتورة بياتريس تعمل حاليا على مشروع كبير بخصوص كتاب « كليلة ودمنة»، كما تعمل على مشروع مشترك مع الدكتور حاتم الزهراني ىيهدف إلى ترجمة الأبيات الأمثال للمتنبي، الذي تم انجاز جزء كبير منه كما صرح د. الزهراني على صفحته بتويتر، ووعد بأن يرى النور قريبا إن شاء الله.

والتعريف بمسيرة الدكتورة بياتريس الملهمة يتطلب مقالا مطولا، لذا نكتفي بهذه الإضاءة التي نفتح من خلالها نافذة حوار تُعرف القارئ على بعض جوانب هذه الشخصية الجديرة بالتقدير والاحتفاء:

*تقولين: «اكتشفت أنه إذا كنت تتحدث عدة لغات، فإنك تطور شخصية مختلفة في كل لغة»، فما الذي دفعك لاختيار التخصص في العربية من بين اللغات الأخرى التي أحاطت نشأتك؟

*ابتداءً، كنت أريد أن أغادر خارج أوروبّا وأتعلّم لغةً ذات نظرةٍ أشمل للعالم، فوقع اختياري على اللغة العربيّة؛ لأنّها لغةٌ قديمةٌ وحيّةٌ في الآن ذاته، كما أن المكتوب من موروثها يغطّي كلّ مواضيع المعرفة وحقولها التي قد يخطر للمرء أن ينشط فيها. كان اختياراً لم يفرض عليّ أيّ حدودٍ معرفية، وهو الأمر الذي كانت لغات أخرى معدودة فقط قادرة على منحه لي.

*كيف تقرأين تأثر اللغات بالعربية و تأثر العربية باللغات الأخرى، وما أثر ذلك عليهما؟

*كانت اللغة العربيّة دائما على تواصل مع لغاتٍ أخرى، فهي قد تطوّرت داخل مجالٍ تاريخيٍّ سبق أن كانت فيه لغات ساميّة تعد هي الأخرى لغات عالمية في ذلك الوقت: أعني الآكاديّة والآراميّة. اقترضت اللغة العربيّة كلماتٍ من الآراميّة (كثيرون آنذاك كانوا ثنائيي اللغة)، كما أخذت مفاهيم عديدة من اليونانيّة عبر حركة الترجمة في العصر العبّاسي. ومع ذلك، فقد كانت عملية الاقتراض والتأثر تلك إبداعيةً أيضًا؛ حيث أنّ المترجمين ولّدوا ألفاظًا في اللغة العربيّة بقدر ما اقترضوا من اليونانيّة. ومن اللغة الفهلويّة عُرّبت العديد من كتب التاريخ، وكتب النصيحة التي ضاعت أصولها، مثل كتاب «كليلة ودمنة». وفي مقابل هذا صارت اللغة العربيّة نموذجًا لخلق آدابٍ مكتوبةٍ جديدةٍ في لغاتٍ أخرى، مثل الإسبانيّة.

وبوصفها لغة الاسلام، نجد غلبة معجمها على الكثير من اللغات الأخرى، من الفارسيّة حتّى الملاويّة. وإضافة إلى ذلك، فليست بالقليلة تلك المصطلحات العلمية العربيّة التي وصلت إلى اللغة الألمانيّة عن طريق الترجمات اللّاتينيّة في العصور الوسطى.

*هل أنت مع أن اللغات كانت لغة واحدة؟ و من أين جاء اختلاف اللغات؟

*لا أظن أنّ في وسع أحدٍ الإجابة عن هذا السؤال، ولكنّنا نعلم أنّ الدماغ البشري جُبل على تعلّم اللغات؛ فالإنسان حيوانٌ ناطق كما قال أرسطو. غير أنّ هذه التطوّرات البيولوجيّة قديمةٌ جدًا بحيث يصعب على الباحثين في العلوم الإنسانيّة تتبّعها. ومع ذلك، فمن المثير للاهتمام أن النحويين العرب، مثل ابن جنّي، بحثوا في أصول اللغات وناظروا بعضهم البعض فيما إذا كانت هبةً ربّانيّة، أو تواضعًا واصطلاحاً بشريًا، أو ضربًا من الاثنين.

*أنت المفتونة بالثقافة العربية خصوصا، إلى أي حد يمكن أن نتحدث عن جاذبية الحضارة العربية للغربيين عموما؟

*إذا ما أخذ المرء لغةً أوروبّيةً باعتبارها نقطة الانطلاق (في سياق أحاديّ اللغة محدّد)، فسيجد أنّ العربيّة مفتاحٌ للأبواب؛ فهي لغةٌ للأدب والمعرفة استخدمها أناسٌ اختلفت لغاتهم الأمّ، واعتنقوا دياناتٍ مختلفةٍ، واستوطنوا قارّاتٍ ثلاث (في أوروبّا، وشمال إفريقيا، وغرب آسيا)، ونشطوا على مدار قرونٍ عدّة. ثمّ إنّ الكمّ الهائل من النصوص العربيّة التي ما يزال جزءٌ منها مجهولًا يقبع متروكًا في غياهب خزائن المخطوطات، هو في حدّ ذاته عالمٌ ينتظر الاستكشاف. ومن هنا، يمكن للمرء أن يقارن اللغة العربيّة باللغة اللاتينيّة، في خدمتها للأغراض التواصلية لشعوب أوروبّا القُرَوسْطيّة، مع وجهَي اختلافٍ مهمّين؛ هما أنّ الانتشار الجغرافي للعربيّة فاق، وما يزال، انتشار اللاتينيّة، وأنّها ما تزال قيد التداول. لا تكف اللغة العربية عن مفاجأتنا على الدوام، حيث أنّ موروثها النصّي متعدّدُ الأشكال، والمؤلّفون المنتمون له، سواءٌ من جهة النثر أو الشعر، تجدهم لم ينفكّوا من التجريب. كل هذه العوامل تجعل الأمر ذا جاذبيةٍ كبيرة لباحثةٍ مثلي.

*كيف تصفين انطباعك خلال زيارتك للمملكة العربية السعودية ضيفة على معرض الرياض الدولي للكتاب؟

*لقد كانت هذه رحلتي الأولى إلى المملكة العربيّة السعوديّة، وإن كنت قد استخدمت بعض النقوش الموجودة هنا في كتابي الأوّل، «تطوّر الخطوط العربيّة». لقد سعدت حقًا برؤية مواقع أركيولوجيّة، مثل العلا، والتي تزخر صخورها بكتاباتٍ بلغاتٍ مختلفةٍ تعود إلى فترة ما قبل الاسلام، مفتوحةً الآن للزيارة. وطبعًا ما العلا إلّا مثالٌ واحدٌ من المواقع التاريخيّة المثيرة في المملكة.

*أعتبر نفسي مستعربةً !

*العربيّة، لغةٌ قديمةٌ وحيّةٌ في آن معا.

*موروث العربية يغطّي كلّ حقول المعرفة

*النحويون العرب بحثوا في أصول اللغات

***كيف نفرق بين الاستشراق والدراسات العربية في سياق نقد المركزية الغربية في نظرتها للشرق؟**

***يمثّل الاستشراق (Orientalism) في رأيي اصطلاحًا عفى عليه الزمن. فبغير قصد من كثيرين، يحمل هذا المصطلح في تاريخه ادعاءً غربياً بالقدرة على السيطرة معرفياً على "الشرق"، أيًا ما يكن القصد بهذا. وبدلًا عن ذاك، يجب على الباحثين الذين يكتبون باللغة العربيّة وأولئك الذين يكتبون باللغات الغربيّة أن يتبنّوا أرضيةً متساوية للتواصل؛ ودون هذا ما يزال أمامنا عملٌ يجب أن نقوم به. إن ما أدرسه يهتمّ تحديدًا باللغة العربيّة وآدابها، ومنه أعتبر نفسي مستعربةً (Arabist)؛ وهو كذلك اسم المعهد الذي أرأسه في جامعة برلين الحرة (Arabistik).**

***هناك بعض التيارات الاستشراقية الألمانية تفتقد الكثير من الانصاف في نظرتها للحضارة العربية الإسلامية القديمة، بل هناك من اعتبرها حلقة وصل مشوهة بينهم وبين الحضارة اليونانية، إلى أي حد يمكن لاحتكاكك بالحضارة العربية أن يصحح هذه المغالطة؟**

***بالفعل تمّ تطوير فقه اللغة (أو الفيلولوجيا: Philology)، وهي الطريقة العلمية لدراسة النصوص القديمة، أساسًا في ألمانيا في القرن التاسع عشر، وله مزايا عديدة. ولكن علينا اليوم دمجه بالمقاربات التي نجدها في نظريات الأدب، وتاريخ علم الاجتماع، وحقولٍ معرفيةٍ أخرى؛ لأنّ النصوص وحدها لا تقدّم لنا كل المعلومات المطلوبة، فالسياق السوسيوتاريخي مثلًا على الدرجة**

أثناء مشاركتها في أحدى ندوات معرض الكتاب

سيرة ذاتية

نالت غروندلر الدكتوراة من جامعة هارفارد عام 1994، ثم درّست في جامعة ييل حتى 2014، انتقلت لجامعة برلين مكان عملها الحالي. ولغروندلر إسهامات كبيرة في تحقيق وترجمة ودراسة المؤلفات والمخطوطات والنصوص العربية القديمة. وصدرت لها عدة مؤلفات في مسيرتها العلمية والبحثية أهمها: أول ترجمة إنجليزية كاملة لكتاب الصولي «أخبار أبي تمام» تحت عنوان: The Life and Times of Abū Tammām، ضمن مشروع جامعة نيويورك-أبوظبي ، «مكتبة الأدب العربي» عام 2015، وفي 2020 صدر لها كتاب بعنوان The Rise of the Arabic Book الذي تقدمه منصة معنى إلى القراء العرب بعنوان «نشأة الكتاب العربي» بترجمة د.إبراهيم الفريح، ويعد من أهم الكتب في المجال. وتُرجم لها إلى العربية كتاب تاريخ الخطوط والكتابة العربية من الأنباط إلى بدايات الإسلام.
وهي عضو مجلس إدارة مركز داهلم للعلوم الإنسانية في جامعة برلين، و باحثة رئيسية في كلية برلين العليا للثقافات والمجتمعات الإسلامية وكلية فريدريش شليغل للدراسات الأدبية.
توجت مسيرة د. بياتريس غروندلر بعدة جوائز وتكريمات أبرزها جائزة لايبنيتس من مؤسسة الأبحاث الألمانية، عن بحثها حول «حول تعدد الأصوات (البوليفونية) في الأدب العربي»، وهي واحدة من أعلى الجوائز في العلوم الأوروبية، والتي نالت من خلالها مبلغ٢،٥ مليون يورو، خصصتها حسب تصريحاتها في تمويل أبحاثها حول اللغة العربية وآدابها.

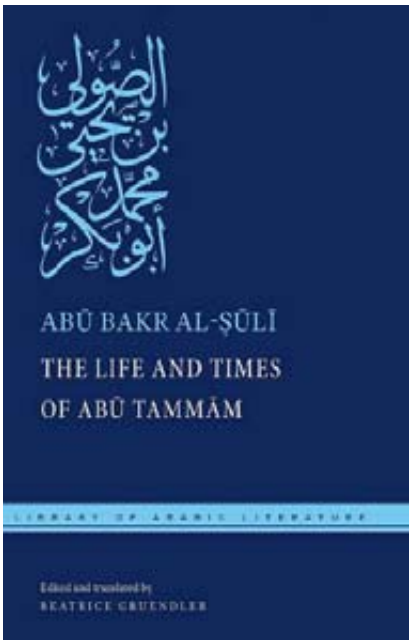

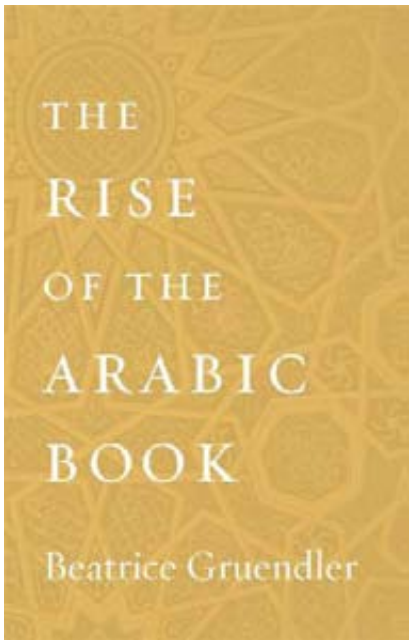

نفسها من الأهمّية. أمّا فيما يتعلّق بالاحتكاك الثقافي بين الحضارتين العربيّة والاغريقيّة، فيجب التأكيد على أن ما حصل لم يكن حركة ترجمةٍ فقطّ، كما أنّه لم يكن تلقّيًا «سلبياً» وحسب، بل العكس تمامًا؛ لقد كان استيعابًا فعّالًا للعلوم الاغريقيّة القديمة. ومع أن هذا في حدّ ذاته إنجازٌ هامّ، إلاّ أنه لم يكن إلّا نقطة بدايةٍ لحقولٍ كثيرة من المعرفة العلمية، مثل الفلسفة والطبّ وعلوم الفلك، إلخ.، والتي أسهم في تطويرها إلى حدٍّ أبعد علماءٌ كتبوا باللغة العربيّة، فانتشر ما جاؤوا به بدوره إلى أوروبّا. وخذ مثالًا على هذا تعليق ابن رشد على «كتاب الشعر» لأرسطو، حيث ملأه باقتباساتٍ من امرئ القيس، والمتنبّي، وشعراء آخرين؛ فترجمه ثقافياً بما يتناسب مع عصره. ويمكنكِ القول بأنّه أعاد كتابة «كتاب الشعر» بطريقة ما. وتُرجم بعد ذلك (مع كل تلك الإضافات الشعريّة) إلى اللّاتينيّة.

*** ومن خلال تحقيقك لكتاب الصولي عن أبي تمام بحمالياته البديعية ورؤيـاه الفلسفية كيف يمكن أن تؤكدي على ذلك من وجهة نظر ثقافية؟**

لقد تشكلت لدي قناعة بأنّ أبا تمّام، بوصفه شاعرًا كبيرًا، يجب أن يُعرف في الغرب بشكل أفضل، واخترت أبا بكرٍ الصولي تحديدًا لأنّه فهم المشروع الفنّي لأبي تمّام أفضل من أيّ شخصٍ آخر اليوم. فبحكم كونه ناقدًا بصيراً، وضع الصولي يده على كثيرٍ من الأسئلة التي لم تهتمّ بها النظريّة الشعريّة العربيّة إلّا في فترة متأخرة؛ عند السكّاكي مثلًا في اهتمامه بالسرقة، وتوليد المعاني وإبداعها، أو الدمج بين الشعر والمنطق. وفي الآن ذاته كان الصولي متشبّثًا برأيه ومنحازًا إلى أبي تمّام، فينتج عن ذلك أن حججه المتحمسة لأبي تمام تمثل متعة للقراءة إلى جانب كونها تقدم شيئاً جديداً. لقد أردت إتاحة وجهة نظره للقارئ الغربي.

***درج الأدب المقارن على البحث عن نقاط الائتلاف والاختلاف، في نظرك ما هو الشاعر الأقرب لأبي تمام، في الشعر الغربي؟**

هذا صعب! بالنظر إلى أسلوب أبي تمّام البلاغيّ البارع، فعلى المرء أن يعودَ إلى الشعر الباروكيّ الأوروبيّ، ولكنّ هذا الشعر ليس مما نفكّر فيه اليوم في أوروبّا، في حين أنّ أبا تمّام ما يزال يخدم الشعراء العرب المعاصرين، فيلهمهم ويحفزهم، حتّى وإن كانوا يبدعون داخل أشكالٍ شعريّةٍ مختلفة، كشعر التفعيلة وقصيدة النثر. فبسبب عدم تغيّر اللغة العربيّة، يحتفظ الشعراء الذين يكتبون بها بمخزونٍ تاريخيّ عميقٍ، في حين أنّ اللغات الأوروبّيّة، بحكم حداثتها، لها ذاكرةٌ تاريخيةٌ أقصر كثيراً.

*المخطوطات العربية عالمٌ ينتظر الاستكشاف

*العُلا مثالٌ للمواقع التاريخية المثيرة في المملكة.

*الاستشراق اصطلاح عفى عليه الزمن ويحمل ادعاءً بالقدرة على السيطرة على الشرق.

*تتعدد وظائف قصيدة المديح في الأدب العربي، ما هي القيم الإنسانية التي لامستك أكثر في دراستك لهذا الغرض الشعري العربي الأصيل؟

إن المديح تقليدٌ أدبيّ غني للغاية؛ إذ يتجاوز مجرد التمجيد والإشادة إلى النصيحة والمجادلة والتأنيب، فيتعايش مع الهجاء بصفته تهديدًا ضمنيًا. وعليه فهو يفيدنا بمعطياتٍ كثيرةٍ إذا ما درسناه على حقيقته، أي من حيث كونه شكلًا من أشكال التفاعل والتبادل؛ فقد كان المديح حلبةً فاوض داخلها الشعراءُ أصحاب السلطة -وهو أمرٌ فيه خطورةٌ لا يمكن إنكارها- ولكن أيضاً شكلًا أدبيًا بلغ أعلى درجات الرقيّ. فعلى سبيل المثال، طوّر ابن

*أبو تمّام ما يزال يلهم الشعراء المعاصرين!

*شعر المديح تقليدٌ أدبيٌّ غني

*آفاق الأدب العربيّ لا متناهية

*أبحث بمعيّة فريقٍ كبيرٍ في الموروث متعدّد اللغات لكتاب «كليلة ودمنة».

الرومي مثلًا أخلاق الرعاية الأدبيّة (patronage)، في حين وضع المتنبي نفسه ومخاطبَه هكذا على قدم المساواة.

*لقد حققت الكثير من الانجازات الثقافية في التعريف بالحضارة العربية، فما هي مشاريعك المستقبلية في آفاق هذا التوجه الثقافي المعرفي؟

إنّ آفاق الأدب العربيّ لا متناهية. وأنا اليوم، وحقيقةً منذ خمس سنواتٍ مضت ولخمسٍ أخرى مقبلة، أبحث بمعيّة فريقٍ كبيرٍ في الموروث متعدّد اللغات لكتاب «كليلة ودمنة». إنّ هذا الكتاب جزءٌ من الأدب العالمي. ولكن، مع التغيّر الشديد الذي دخل على متن نصّه، وتحرّكه داخل ثقافاتٍ مختلفة، فمن الصعب على شخصٍ واحدٍ البحث فيه. ثمّ إنّ البيانات التي يكشف عنها مشروع كهذا معقّدةٌ بشكل يُحتّم نشرها في صيغةٍ إلكترونيّة، بحيث توضع نسخٌ مختلفةٌ من الكتاب جنبًا إلى جنبٍ للمقارنة، وهذا ما نفعله. ومعًا ننظر أيضًا في كيفيّة خلْق مترجمي «كليلة ودمنة»، أكثر من مرّة، لنسخٍ جديدةٍ من الكتاب (بالاسبانيّة، والعبريّة، واللّاتينيّة، والاغريقيّة، والسريانيّة، والفارسيّة، وهذا بحلول القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي فقط). ولكن، تبقى النسخ العربيّة هي الأكثر تعقيداً للدراسة؛ لأن النسّاخ (المجهولين في الغالب أو المغمورين) كانوا في حقيقة الأمر محرّرين (redactors)، فأدخلوا تغييراتٍ، كانت كبيرةً أحيانًا، على الحكايات، والحِكَم، والأمثال، والحجج، مابين القرنين السابع والثالث عشر الهجريين/الثالث عشر والتاسع عشر الميلاديين. إنّ ما أعادوا كتابته يسمح لنا بفهم ما انتظروه من هذا الكتاب: أن يكون رسالةً في أمور الحكم والدولة، أو دليلاً في الأخلاق، أو كتيباً في الفلسفة العمليّة، أو ما نسميه اليوم ب"دراسات الحالة" في التفاعل البشري، أو بكلّ بساطةٍ عملاً للترفيه والتسلية. وكتاب «كليلة ودمنة» ليس الوحيد الذي يبيّن لنا كيف صار عددٌ لا يحصى من الأفراد، سواءٌ كانوا من ذوي الشهرة أو لم يكونوا، فاعلين في المشهد الأدبي العربيّ. ويظهَر هذا جليًا في كتب التراجم التي ما يزال الأدبي العربيّ يحتفظ بكمّ غزيرٍ منها. ولكنّ بحثنا في كتاب «كليلة ودمنة» يُظهر أنّه بإمكاننا إعادة أفرادٍ (بالكاد نعرفهم) إلى وجه الساحة، بالاعتماد على ما تركوه من آثار أدبيّة.

---

*(تُرجمت الأجوبة من الإنجليزية بواسطة الأستاذ: وليد الخطّابي).